٢ - صفحة بيضاء

فى تاريخ الحجر الأسود

الأستاذ محمد الطيب النجار

وضع ابراهيم (عليه السلام) الحجر الاسود فى موضعه من البيت المحرم ، ثم أتم بناءه مع ولده اسماعيل ، وأذن فى الناس بالحج .. وهذه اليد التى وضعت هذا الحجر الاسود فى مكانه وأظهرت للعالمين قدره وغرست فى قلوب المؤمنين محبته .. هى بذاتها اليد التى تسلطت من قبل على الاصنام فضربتها الضربة القاصمة ونفت ما يحيط بتقديسها من وهم وخرافة، ودعت الى نبذ الاحجار والقضاء على عبادتها

والحجر الاسود جزء من الكعبة المشرفة فهو جماد لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع ، ولا يعطى ولا يمنع ، وحينما يقبله المؤمنون فهم يوقنون حق اليقين أنه

لايحس تقبيلهم ، وحينما يكبرون الى جواره يعتقدن أن تكبيراتهم لا تعيها كتلته ... ولكن عيون المؤمنين اذا تطلعت اليه ، فانما يكون ذلك من خلال ايمانهم ، وليست الاصنام والاوثان الا رجس من عمل الشيطان ، يصنعها السفهاء بأيديهم ومن عجب أنهم يعلمون انها لاتستطيع ان تخلق ذبابا ولو اجتمعوا له .. فهى لا تملك دفع الأذى ولا رد العبث الذى يراد بها احيانا ، ويشاهدونها حينما يغيرها كر الغداة ومر العشى ، وهى صاغرة مستسلمة وبرغم ذلك يعبدونها لأنها فى زعمهم آلهة أو هى تقربهم من الآله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وقد ناقشنا فى العدد السابق ما ورد فى شأن هذا الحجر من آثار،وسنتتبع هذا الحجر اليوم فى مختلف العصور التى مرت به ، لنرى من خلال ذلك مبلغ حرص الولاة والحكام قبل الاسلام وبعده على صيانته والعناية به ، وكيف توارثوا على طول الزمن حبه وتقديره .

يذكر المؤرخون أن قبيلة جرهم قد نزلت بمكة على عهد اسماعيل عليه السلام فتزوج منهم ، وظل أمرهم يعظم وساعدهم يشتد على مر الزمن ، حتى أصبحوا ولاة البيت وحجابه ، بل صار لهم الامر والحكم كله - ويذكر المؤرخون كذلك أن سيلا

أصاب البيت على عهدهم فأعادوه على بنـاء ابراهيم عليه السلام .

ثم اصاب الغرور جرهما وأدركها داء الأمم فبغت على الناس واستخفت بالحـرمات فآذنتها قبيلة خزاعة بحرب وأخرجتها من مكة وكأنما عز عليهم أن يتركوا البيت الحرام كما وجدوه على عهد اسماعيل عليه السلام ، فعمد عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي الى الحجر الاسود فخلعه من موضعه ، ودفنه فى بئر زمزم ، ثم ترك البيت وقد سلب منه أعز شيء فيـه ، فكان موضع الحجـر المفقود كالعين المفقوءة يذكر النـاس دائما بمـا اقترفت عليه جرهم من الذنب والخطيئة .

ولـكن لم يمكث هذا الوضع الا قليلا من الزمان ، حتى علمت خزاعة بالمكان الذى دفن فيه الحجر فأخرجتـه وأعادته الى وضعه الذى كان عليـه ، ثم جاء بعد ذلك قصى بن كلاب ، فاخرج قبيلة خزاعة من مـكة ، وأصبح له ولأبنائه من بعـده خدمة البيت من الحجابة السقاية والرفادة .. وقصى هذا هو الجد الرابع للرسـول عليه الصلاة والسلام وقد ظل أبناؤه يتوارثون خدمته حتى ظهر الاسلام فى شبه الجزيرة العربية .

ومن الثابت أن الوثنية دخلت الى مكة فى عهد قبيلة خزاعة ، وانتشرت فى جزيرة العرب حتى أصبح لها الغلبة على سـائر الأديان فى هذه البلاد ، وكان لابد اذن أن يكون تقديس الاحجار قد أخذ طريقـه الى الحجر الاسود ، وأن يتغير الوضـع القائم فى قلوب الناس نحوه ، وإصـبح حجـرا مقدسا تحيط به على حـد زعمهـم الاسرار العجيبـة وتـكمن وراءه الفـوائد العـاجلة والآجلة ، فهـو يكفـر الذنوب ، ويفرج الكروب ، ويقضى الحوائج ، وهـو يمتص خطايا العباد الذين يتمسحون بـه ويتضرعون الى جواره .. الى غير ذلك من الآراء والعقائد الفاسدة التى آمن بهـا الخزاعيون ، وأبناء قصى ، ومن اتبعـوا سبيلهم ، ممن يقدسون الاحجـار ويؤمنون بآثارها وأسرارها .

ولقد أصاب الـكعبة المشرفة سيل جارف قبل البعثة النبوية بخمسة أعوام فتصدعت جدرانها ، وأوهن بنيانها ، وكان لابد من هدمها . واجتمعت كلمة العرب على بنائها من جديد ، فلما وصلوا فى البناء الى مكان الحجـر الاسـود ، ارادوا أن يضعـوه فى موضعه ، فنشب خلاف بينهم وتنافسوا على احراز هذا المجـد والشرف ، حتى كادت تنشب الحرب بينهم ، ودام هذا الشقاق والخصام أربع ليال لم يستقروا فيها على أمر . ولم يهدأ لهم بال ، فأشار عليهم أبو أمية بن المغيرة المخزومى ، بأن يحكموا بينهم رجلا يرتضونه . فقالوا « لنكل الامر لأول داخل علينا» فكان محمداً بن عبد الله ، ففرحوا واستبشروا لما كان يعرف من صدقه واخلاصه وأمانته وقالوا : هذا الأمين رضيناه ، فلما أخبروه الخبـر بسـط رداءه وقال : لتأخـذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم وضع فيـه الحجر وامرهم برفعه حتى انتهـوا الى موضعه ، فأخذه ووضعه فيه .

وجاء الاسـلام بعقيدة لا غموض فيها ولا التواء ، وظهر للعقلاء من الناس ما تقـوم عليه عبادة الاصنام من الاوهام والخرافات وأخذت تلك الهالة التى غشيت الحجـر الاسود تنجاب عنه شيئا فشيئا ، واصبح المسلمون من وراء نبيهم ينظرون اليه ، نظرة ابراهيم عليه السلام فلا ترى قلوبهم الا خالق الحجر ورب البيت .

ولقد تعرض الحجر الاسود لاحـداث كثيرة ، ولولا أن الله قدر له الحفظ والبقاء لعصفت به الكوارث ، وتبـدد بين ركام الحوادث ، فعندما وقعت الفتنة بين عبدالله بن الزبير وبين الامويين ، أعاد عبد الله بنـاء الكعبة بعد تصدعها على يدى الحجاج بن يوسف الثقفى ، وصب طوقا من الفضـة

حول الحجر ليثبته فى موضعه ، ولـــكن الفضة تزلزلت بمضى الوقت وتعلقت حـول الحجر حتى خشى الناس عليه أن يسقط من مكانه ، فلمـا ذهب الرشيد الى الحـــج أمر بالحجـارة التى بينهـا الحجـر الاســود فنقبت بالماس من فوقها ومن تحتها ٠

ويذكر التاريخ ان عدو الله « أبا طاهر القرمطى » وفد الى مكه سنة ٣١٧ هـ ، وفعل فيها هو واصحابه أمورا منكرة ،ومنها أن بعضهم ضرب الحجر الاســـود بدبوس فكسره ثم قلعه من موضعـــه وذهب به الى بلاده فى البحرين ، وبقى موضعه خاليـا يضع فيه الناس أيديهم كما كانوا يلمسونه فى حال وجوده ، وبذل كثـــير من الولاة والحكام المسلمين المحاولات لاسترداده ، ولم يتم ذلك الا فى سـنة ٣٣٩ هـ ، وقال القرامطـة عنـد رده : « أخـذناه بقدرة الله ورددناه بمشيئة الله » ٠ والقرامطة مـــن اصحاب المذاهب الهدامة والعقائدالفاسدة — ارادوا بخلع الحجر احداث فتنـــــة بين المسلمين تؤدى الى ما يريدونه لانفسهم مـن النفوذ والسلطان ، فلما وجـــدوا انهم سيكونون وقودا لهذه الفتنة أرغموا على رده الى موضعه وستروا غرضهم السيىء بقولهم هذا «اخذناه بقدرة الله ورددناه بمشيئة الله»

أما من ناحية التشهيربالمسلمين عن طريق هـذا الحجر ، فانه لم يخل عصر من العصور من محاولات يقوم بهـا الملاحدة للنيــل من مبـادىء الاســـلام وتعاليمه ، ويرون فى الحجر الاسود نقطة ضعفـيمكن ان يصوبوا اليها سهامهم الطائشة لينفذوا منخلالها الى اغراضهم الخبيثة !!

أجل ٠٠ انهم يقولون أن الحجر الاسود بقية من بقايا الوثنية ، وأن فى وجـــوده بالبيت الحـرام وتقبيل النـاس له وتضرعهم الى جواره انما هو احياء لعبادة الاصنام ٠٠ ونقول لهؤلاء لنـا هؤلاء بمسلم واحد يعرف مبـادىء الاسلام يؤمن بأنه ينفع أو يضر أو يشفع لمذنب أو يستجيب لداع ٠٠ فان لم يفعلوا — ولن يفعلوا — فليقفوا عند حدهم ، وليعلموا أن تعـاليم الاسلام ومبادئه قـــد استمدت قوتها من الحجة والبرهان ، وليس فيها ما ينأى عن الحكمة ، ويستعصى عـلى الفهم ، وأن هـذا الحجـر المـاثل فى ركن الكعبة ، انما هو نقطة يبدأ منها الطواف وينتهى اليها — وان تقبيله واستلامه ليس تقديسا ولا عبادة ، وانما تسجيل على لبدء الطواف وانتهائه ٠

والحجر الاسود — بعد ذلك — أثر تليد ، يحمل الى الاجيال — عبر القرون — ذكرى ابراهيم واسماعيل عليهما الســـلام وهى ذكرى خالدة تعتز بها النفوس ، ويقـــوى فى ظلها الايمان ٠

